

موقف من يونس بن حبيب

للدكتور محمود حسني محمود

(الجامعة الأردنية)

- ١ -

هو^(١) أبو عبدالرحمن يونس بن حبيب النحوي البصري. يكاد أغلب الذين ترجموا له أن يتفقوا على أنه واحد من الموالى العرب، ولكنهم حاروا في من كان مولاه، فقبل^(٢) إنهم بنو ضبة، وقبل^(٣) بنو ليث بن بكر، وقبل^(٤) بلال بن هرمي، من بني ضبيعة بن بجالة. أما صاحب "معجم الأديباء" فقد رأى أنه ضبي نسباً صريحاً، ولكنه عاد وروى أنه مولى بني ليث؛ قال^(٥): "أبو عبدالرحمن الضبي وقيل الليثي بالولاء". وكان نسب يونس يحير أبا الحسن الخزاز، الذي لم يستطع أن يتحقق من الأمر، فكان يقول^(٦): "لا أدري هو مولى أم لا". وفي جميع الأحوال فإن يونس يبقى عربي الأصل. ولم يذهب أحد إلى أنه غير ذلك سوى صاحب "مفاخر العجم" الذي ادعى^(٧) أنه أعجمي الأصل، مفتخراً بذلك، توهماً^(٨) منه أنه

(١) طبقات المفسرين: ج ٣٨٥/٢. بغية الوعاة: ج ٣٦٥/٢. إنباه الرواة: ج ٦٨/٤.

(٢) وفيات الأعيان: ج ٢٤٤/٧. الفهرست: ص ٧٩. إنباه الرواة: ج ٦٨/٤.

(٣) وفيات الأعيان: ج ٢٤٤/٧. معجم الأديباء ج ٦٤/٢. الفهرست: ص ٧٩.

(٤) وفيات الأعيان: ج ٢٤٤/٧.

(٥) ج ٦٤/٢٠.

(٦) الفهرست: ص ٧٩.

(٧) الفهرست: ص ٧٩.

(٨) تاريخ الأدب العربي (بروكلمان): ج ١٣٠/٢.

من أهل الجبل، بينما هو في الحقيقة من مواليد جبّل^(٩): القرية الواقعة^(١٠) بين النعمانية وواسط، ولعل لفظ "جبل" هو الذي أوهمه أنه من أهل الجبل.

وقد قدر الله ليونس أن يعيش عمراً مديداً، اختلفت الروايات^(١١) في تقديره، وتراوح فيها بين ٧٨ سنة إلى ١٠٢ من السنين، ولكن الأغلب أنه عاش ٨٨ عاماً، أو قريباً منها، وأنه توفي سنة ١٨٢ هـ.

ويبدو أنه فرغ حياته تماماً من أجل العلم، ولم تشغله شواغل الدنيا "فلم^(١٢) يَسْرَ، ولم يتزوج"، و"^(١٣) لم تكن له همة إلا طلب العلم، ومحادثة الرجال"، ولعلّ عدم انشغاله بشيء غير العلم يسّر عليه جهداً في امتلاك حصيلته العلمية التي وصل إليها، وأمكنه من الحفاظ عليها، حتى قبل فيه قولٌ ظريف: "^(١٤) مثل يونس كمثل كوز ضيق الرأس، لا يدخله شيء إلا بعسر، فإذا دخله لم يخرج منه" أي لا

(٩) وفيات الأعيان ج٧/٢٤٤. إنباه الرواة: ج٤/٦٨.

(١٠) معجم البلدان: ج٢/١٠٢. قال ياقوت: "بليدة بين النعمانية وواسط في الجانب الشرقي، كانت مدينة، وأما الآن فإنني رأيتها مراراً وهي قرية كبيرة، قال البحرني:
لئن أوحشتي جبّل وخصاصها لما أنستني واسط وقصورها".

(١١) ولعلّ أصحها تلك التي وردت على لسان الجاحظ في حديثه للمبرد، وتفيد بأن يونس توفي سنة ١٨٢ هـ وهو ابن ثمان وثمانين (مراتب النحويين ص ٢١ وانظر الحيوان ج٥/٥٩١). وهذه الرواية تتطابق مع ما ورد على لسان إسحق بن إبراهيم الموصلي في الفهرست ص ٧٩.

أما في: البداية والنهاية: ج١٠/١٨٤ فقد ورد أنه توفي عن ٧٨ سنة. وفي طبقات المفسرين ج٢/٣٨٦ وبغية الوعاة: ج٢/٣٦٥ توفي عن تسعين. وفي إحدى روايات الانباء: ج٤/٧١ أنه جاوز المائة.

(١٢) إنباه الرواة: ج٤/٧١. طبقات المفسرين: ج٢/٣٨٦. بغية الوعاة: ج٢/٣٦٥.

(١٣) الفهرست: ص ٧٩. وفيات الأعيان: ج٧/٢٤٥. إنباه الرواة: ج٤/٧١.

(١٤) طبقات النحويين واللغويين: ص ٥١. إنباه الرواة: ج٤/٦٨.

ينسى. وبقي يونس يفيد من علمه إلى أن^(١٥) "تفرغ من الكبر"، إذ وصل عمراً لا أحد يرجو أن يصل إليه، فقد^(١٦) دخل المسجد يوماً وهو يهادي بين اثنين من الكبر، فقال له رجل كان يتهمه على مودته: بلغت ما أرى يا أبا عبدالرحمن، قال: هو الذي ترى، فلا بلِّغته".

وكان يونس ذا نظرة تأملية، وصاحب رأي في بعض الجوانب الحياتية، فكان يقول: (١٧) ثلاثة والله أشتهي أن أمكن من مناظرتهم يوم القيامة: آدم، عليه السلام، فأقول له: قد مكّنك الله من الجنة وحرّم عليك شجرة، فقصدت لها حتى ألقيتنا في هذا المكروه؟. ويوسف، عليه السلام، أقول له: كنت بمصر، وأبوك عليه السلام بكنعان، بينك وبينه عشر مراحل، يبكي عليك، لمّ لم ترسل إليه: إني في عافية، وترى ما كان فيه من الحزن؟

وظلحة والزيبر أقول لهما: عليّ بن ابي طالب، عليه السلام، بايعتماه بالمدينة، وخلعتماه بالعراق، لمّ؟ أي شيء أحدث؟"

وللشباب والأحباء عنده مكانة غالية حين يقول^(١٨):

شيطان لو بكت الدماء عليهما عيناى حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما: شَرخَ الشباب وفُرقةَ الأحبابِ

وللعلم عنده مكانة لا تدانيها مكانة، فكان يقول: (١٩) إن علمك من روحك، ومالك من بدنك، فضعه منك بمكان الروح، وضع مالك بمكان البدن".

(١٥) الفهرست: ص ٧٩. إنباه الرواة: ج ٤/٧١.

(١٦) مراتب النحويين: ص ٢١. إنباه الرواة: ج ٤/٦٨.

(١٧) أخبار النحويين البصريين: ص ٢٩.

(١٨) شذرات الذهب: ج ١/٣٠١.

(١٩) الحيوان: ج ١/٦١.

تَنَفَّفَ يونس ثقافة واسعة تمثل ثقافة عصره؛ وكان متجلباً في أكثر من علم واحد: فهو عالم بالأنساب، يُضْرَبُ به المثل في الدراية بهذا العلم والتمكّن منه. قال الجاحظ في حديثه عن الحمام: "(٢٠) ووصف الهذيل المازني مثنى بن زهير وحفظه لأنساب الحمام، فقال: "والله لهو أنسب من سعيد بن المسيب وقتادة بن دعامة للناس، بل هو أنسب من أبي بكر الصديق رضي الله عنه! لقد دخلت على رجل أعرف بالأمهات المنجبات من سُحَيْمِ بنِ حفص، وأعرف بما دخلها من الهُجْنة والإقْراف من يونس بن حبيب".

وهو قصاص من أولئك الذين كان الناس يتحلّقون حولهم في المساجد ويستمعون إلى ما يروونه من أحاديث وأخبار. ويبدو أن الموضوع الذي كان يدور حوله القصاص - كما يبدو من خلال ذكر (٢١) الجاحظ لهم - هو تفسير آيات القرآن الكريم، فبرع يونس بين المفسرين، (٢٢) وترجم له في طبقاتهم، ولا سيما وقد ألف كتاباً أسماه "(٢٣) معاني القرآن". ولعل يونس في تأليفه هذا الكتاب هو الذي أوحى إلى تلامذته: أبي عبيدة (٢٤) والكسائي (٢٥) والأخفش (٢٦) والفراء (٢٧) أن يسلكوا

(٢٠) الحيوان: ج ٣/٢١٠.

(٢١) انظر البيان والتبيين: ج ١/١٩٢ - ١٩٤.

(٢٢) انظر: طبقات المفسرين: ج ٢/٣٨٥ - ٣٨٦.

(٢٣) انظر: الفهرست: ص ٧٩. وقد خلط صاحب معجم الأدباء (ج ٢/٦٧) بين معاني القرآن و "النوادر" فذكره باسم "معاني القرآن الكبير" "معاني القرآن الصغير" مع أن كتاب المعاني كتاب واحد، أما النوادر فألف فيها كتابين: الكبير والصغير كما سيرد فيما بعد.

(٢٤) انظر إنباه الرواة ج ٣/٢٥٦.

(٢٥) انظر نزهة الألباء ص ٦٠.

(٢٦) انظر إنباه الرواة ج ٢/٤٢.

(٢٧) انظر: نزهة الألباء ص ٨١.

مسلكه ويؤلفوا كتباً في الموضوع نفسه تحمل اسم الكتاب الذي ألفه. وله آراء^(٢٨) تفسيرية تناقلتها الكتب بعده.

وهو ناقد أدبي مؤهل بكل متطلبات النقد، كان^(٢٩) عالماً بالشعر، نافذ البصر في تمييز جيده من رديئه، عارفاً بطبقات شعراء العرب، حافظاً لأنسابهم، مرجعاً لمن كان الأدب يشكل جزءاً من تفكيرهن وهمومهم؛ قدم^(٣٠) عليه جعفر بن العباس من عند الخليفة المهدي وقال له: أنا وأمير المؤمنين اختلفنا في هذا البيت:

والشيبُ ينهض في السواد كأنه لييل يصيح بجانبه نهار

فما الليل والنهار؟ فقال يونس: الليل، الليل الذي تعرف، والنهار، النهار الذي تعرف، فقال جعفر: زعم المهدي أن الليل فرخ الكروان، والنهار فرخ الحبارى. فقال أبو عبيدة في البيت ما قاله يونس. والذي قاله المهدي معروف في الغريب من اللغة.

وكان الشعراء يذهبون إليه يستأنسون برأيه، قبل أن يذيعوا أشعارهم للناس؛ حتى أن بعضهم كان يتخذ من رأيه القول الفصل، فإما أن يظهر شعره وإما أن يلقيه ولا يلتفت إليه. قدم^(٣١) عليه مروان بن أبي حفصة، وقال له: لقد قلت شعراً أعرضه عليك، فإن كان جيداً أظهرته، وإن كان رديئاً سترته، وأنشده:

طرقتك زائرة فحيّ خيالها

(٢٨) انظر: الحيوان ج ٢٤٠/٥ ج ٢٩٥/٥، وطبقات فحول الشعراء ص ٥٤ (مطبعة المدني - القاهرة - ١٩٧٤).

(٢٩) معجم الأدباء ٦٤/٢.

(٣٠) وفيات الأعيان ٢٤٧/٧.

(٣١) الموشح ص ٥٠ معجم الأدباء ج ٦٦/٢٠.

قال: فقال له: يا هذا، اذهب فأظهر هذا الشعر، فأنت والله فيه أشعر من
الأعشى، يريد في قوله^(٣٢):

رحلت سمية غدوة أجمالها

فقال له مروان: قد سؤتني وسررتني، فأما الذي سررتني به فلا إرتضائك
الشعر، وأما الذي سؤتني به فلتقديمك إياي على الأعشى، قال: نعم، إن الأعشى
قال:

فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطحالها.

والطحال لا يدخل في شيء إلا أفسده، وأنت لم تقل ذلك.

وكان يستطيع أن يميز رواية الشعر صدقها من كذبها؛ فقد روي^(٣٣) لأبي
عمرو بن العلاء - بحضور يونس وأبي عبيدة- أن الوليد بن عبد الملك لام
العجاج لقوله شعراً في عمر بن عبيدالله بن معمر أفضل من ذلك الذي قال فيه،
فقال يونس لأبي عبيدة بعد سماع الرواية: أتصدق بهذا؟ ما كان من هذا شيء
قط، ولا كان الوليد يحسنه. قال عمر بن شبة: ولا أحسب يونس إلا قد صدق؛ كان
الوليد لحناً، وكان عبد الملك يعتذر من ذلك، ويقول: "شغلنا حب الوليد عن تأديبه،
لكن هذا سليمان فاسألوه عما شئتم".

وكان الشعراء يحفلون بقوله وبينون عليه شعراً، فقد بنى منصور النمري على
قول يونس: "ما بكت العرب على شيء في أشعارها كبكائها على الشباب، وما
بلغت كنهه"؛ فقال من جملة قصيدة يمدح بها هارون الرشيد:

ما كنت أوفي شبابي كنه غرته حتى انقضى فإذا الدنيا له تبع

(٣٢) ديوان الأعشى ص ٢٧ قصيدة رقم ٣.

(٣٣) الموشح ص ١٩٦.

وليونس قول ذائع يدل على دقة حكمه ومعرفته بطبيعة الشعر، وما يتحكم في جودته؛ فقد سأله ابن سلام عن أشعر الناس، فقال: "لا أومئ إلى رجل بعينه ولكني أقول: امرؤ القيس إذا ركب، والنايعة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب". وكان يقول عن الشعر: "إنه كالسراء والشجاعة والجمال، لا ينتهي فيه إلى غاية".

وكان للشعراء عنده مكانة عالية، وعلاقة وثيقة؛ ولعل أمتن هذه العلاقات تلك التي كانت بينه وبين العجاج ورؤية، حتى أنهما كانا عنده "أشعر أهل القصيد". وقد (٣٧) "اختص بالرواية عن رؤية وتعصب له؛ وكان يهب للدفاع عنه إذا ما حاول أحد أن ينال منه، فهذا (٣٨) شبيل بن عزة يدخل على أبي عمرو بن العلاء - ويونس حاضر - فيبيدي استغرابه من أن رؤية لا يعرف اشتقاق اسمه، فيثب يونس، ثم يجلس بين يدي شبيل ويقول له: علك تظن أن معد بن عدنان كان أفصح من رؤية؟ فأنا غلام رؤية. فما الرؤية والرؤية والرؤية والرؤية؟ (الخامسة مهموزة فقط). فإذا بشبيل يغضب ويقوم، وإذا بأبي عمرو ينكر على يونس تصرفه مع رجل شريف قصد مجلسه؛ فيعتذر يونس قائلاً: ما تماكنت إذ ذكر رؤية أن قلت ما قلت.

(٣٤) وفيات الأعيان ج٧/٢٤٦.

(٣٥) طبقات فحول الشعراء ص ٦٦ (مطبعة المدني - القاهرة ١٩٧٤).

(٣٦) خزنة الأدب ج ١/٩٠.

(٣٧) الرواية والاستشهاد باللغة ص ١١.

(٣٨) مراتب النحويين ص ٢٢. خزنة الأدب ج ١/٩٠.

كان شبيل بن عزة راوية نساباً عالماً بالغريب، وكان شاعراً، تشييع سبعين سنة ثم صار بعد ذلك خارجياً، ويكنى أبا عمرو، مات بالبصرة. انظر مراتب النحويين ص ٢٣.

غير أن شهرة يونس تأتي من علمه باللغة والنحو، إذ^(٣٩) "كان أغلب عليه"، يعرف به فيقال^(٤٠): "يونس النحوي"، تمييزاً له عن غيره ممن عرفوا بهذا الاسم. وقد سمع^(٤١) اللغة عن العرب، شأنه شأن أوائل النحاة الذين كانوا يستقون المادة النحوية من أفواه الأعراب في البادية؛ وألف^(٤٢) في اللغة كتاب "اللغات" و"النوادر الكبير" و"النوادر الصغير" و"الأمثال".

أما النحو فأخذه عن مجموعة، أولهم^(٤٣) حماد بن سلمة، مع أنه كان أسن^(٤٤) منه، وكان يونس يفضل^(٤٥)؛ ولكن أكثرهم تأثيراً فيه أبا عمرو بن العلاء الذي يبدو أنه كان ملازماً إياه، يكتب له حتى عدّ من كتّابه^(٤٦). وأثر أبي عمرو في علم يونس ظاهر في ميدان الشعر، والرواية، والنقد، واللغة والنحو؛ وكان يونس يجلّ أستاذه ويحترم رأيه قائلاً: "لو كان ينبغي أن يؤخذ بقوله كله في شيء واحد، كان ينبغي لقول أبي عمرو بن العلاء في العربية أن يؤخذ كله، ولكن ليس أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك".

وقد شاهد يونس مرحلة متطورة في ميدان النحو، توضحت فيها أسس النحو، وثبتت فيما بعد في كتاب سيبويه. وتعد هذه المرحلة قفزة واسعة إذا ما قيست بتلك

-
- (٣٩) مراتب النحويين ص ٢١.
- (٤٠) انظر: وفيات الأعيان ج٧/٢٤٤، خزانة الأدب ج١/٩٠. شذرات الذهب ج١/٣٠١.
- (٤١) أخبار النحويين ص ٢٧.
- (٤٢) انظر: الفهرست ص ٧٩.
- (٤٣) طبقات النحويين واللغويين ص ٥١.
- (٤٤) نزهة الألباء: ص ٤٢.
- (٤٥) المصدر نفسه ص ٤٣.
- (٤٦) أخبار النحويين البصريين ص ٢٧.
- (٤٧) طبقات فحول الشعراء ص ١٦ (المدني - القاهرة ١٩٧٤م)، وانظر: نزهة الألباء ص ٣١.

التي شهدها ابن أبي إسحق. سُئل^(٤٨) يونس عن ابن أبي إسحق وعلمه فقال: هو والبحر سواء؛ أي هو الغاية. قال: فأين علمه من علم الناس اليوم، لو لم يكن في الناس اليوم أحد لا يعلم إلا علمه يومئذ لضحك منه، ولو كان فيهم من له ذهنه ونفاذه، ونظر نظره لكان أعلم الناس.

وقد أسهم يونس في تطور النحو مساهمة فعالة، وكان له شخصيته الواضحة وأثره البين حتى قيل: "له^(٤٩) قياس في النحو ومذاهب يتفرد بها". وقد خصص معظم حياته للتدريس، فكان له بالبصرة حلقة^(٥٠) ينتابها طلاب العلم وأهل الأدب، وفصحاء الأعراب، ووفود البادية؛ ودرس عليه علماء مشاهير سنوات طويلة، فاختلف^(٥١) إليه أبو عبيدة أربعين سنة، وأبو زيد عشر سنين، وخلف الأحمر عشرين سنة، وأخذ عنه قطرب^(٥٢) ومحمد^(٥٣) بن سلام الجمحي، والكسائي، والفراء.

ويكفيه أن سيويه أخذ عنه فأكثر^(٥٤)، ونقل عنه نقولاً صدق فيها جميعاً، وشهد يونس على صدقها شهادة رفعت من ذكر سيويه وكتابه، فقد^(٥٥) قال حين ذكر سيويه عنده: أظن هذا الغلام يكذب على الخليل، فقيل له: قد روى عنك أشياء كثيرة، فانظر فيها، فنظر فيها، فقال: صدق في جميع ما قال، هو قولي.

(٤٨) طبقات النحويين واللغويين ص ٣١.

(٤٩) أخبار النحويين البصريين ص ٢٧ وانظر إنباه الرواة: ج ٧٠/٤.

(٥٠) انظر: الفهرست ص ٧٩، وإنباه الرواة: ج ٧٠/٤.

(٥١) وفيان الأعيان: ج ٧/٢٤٥. معجم الأدباء: ج ٦٥/٢٠. إنباه الرواة: ج ٧١/٤. شذرات الذهب ج ٣٠١/١.

(٥٢) انظر: مراتب النحويين ص ٦٧.

(٥٣) انظر: مراتب النحويين ص ٦٧.

(٥٤) أخبار النحويين البصريين: ص ٢٧. إنباه الرواة: ج ٧٠/٤، طبقات المفسرين ج ٣٨٦/٢.

(٥٥) أخبار النحويين البصريين: ص ٣٧.

وقد ذكر سيبويه يونسَ وروى عنه في نحو ٢٠٠ موضع^(٥٦) من مواضع الكتاب، بحيث كان يتكرر^(٥٧) اسمه في الصفحة الواحدة أحياناً أكثر من مرة واحدة.

وقد روى يونس في الكتاب لغة كثيرة عن العرب، وكان مفتاح رواياته عنهم يختلف من رواية إلى أخرى، فكان يفتح روايته بـ^(٥٨) "أَنَّ قوماً من العرب...".^(٥٩) "أَنَّ ناساً يقولون...".^(٦٠) "أَنَّ ناساً من العرب...".^(٦١) "أَنَّ بعض العرب الموثوق بهم...".^(٦٢) "أَنَّ بعض العرب...".^(٦٣) "أَنَّ قوماً...".^(٦٤) "أَنَّ العرب تقول...".^(٦٥) "أَنَّهُ سمع أعرابياً...".^(٦٦) "أَنَّهُ سمع العرب...".^(٦٧) "أَنَّ من العرب من يقول...".

(٥٦) انظر: سيبويه إمام النحاة: ص ٩٠.

(٥٧) انظر: كتاب سيبويه ج ١/٤٢٨ ذكر أربع مرات، ج ٢/٤١٠، ٤١١، وانظر: ج ٣/١٩٧، ٣٠٤، ٣١٢، ٣٤٧، ٣٦١، ٤٤٢، ٦٢٢.

(٥٨) انظر: الكتاب ج ١/٣٨٩.

(٥٩) الكتاب ج ١/٤١٦، ج ٢/٤١٠.

(٦٠) انظر: الكتاب: ج ٢/٢٧، ١١٢، ج ٣/٣٤٤.

(٦١) انظر: الكتاب: ج ٢/٣٣٧.

(٦٢) انظر: الكتاب: ج ٢/٢١٣.

(٦٣) الكتاب ج ٢/١١٩.

(٦٤) الكتاب ج ٢/١٤٣، ج ٣/٤٢٥.

(٦٥) الكتاب ج ٢/٤١١.

(٦٦) الكتاب ج ٣/١٣٥.

(٦٧) الكتاب ج ١/٢٦٢، ج ٢/٦٥.

وقد روى عن رؤية^(٦٨) من الشعراء، والفرزدق^(٦٩)، وجريير^(٧٠)، والأسود^(٧١) بن يعفر. وروى عن أبي^(٧٢) عمرو بن العلاء، وكان طريق سيبويه إليه، وروى عن ابن^(٧٣) أبي إسحق.

وتأتي شخصيته النحوية من خلال الكتاب في الدرجة الثانية^(٧٤) بعد شخصية الخليل، وكثيراً ما كان يقترن اسمهما في رواية أو رأي. ومما يلفت النظر في رواية سيبويه عنهما، حين ذكرهما معاً، أنه كان يترجم عليهما إذا سبق ذكر يونس ذكر الخليل، أما إذا سبق ذكر الخليل يونس تَرَحَّم على الخليل وحده، ثم أتبع الترحُّم عليه ذكر يونس، فهو يقول في الموضع الأول مثلاً: ^(٧٥) "وزعم يونس والخليل، رحمهما الله، أن الدرهم ليست نكرة"، ^(٧٦) "ولم يجز يونس والخليل - رحمهما الله- كما غلماناً لك"، ^(٧٧) "هذا قول يونس والخليل رحمهما الله". وفي الثاني يقول مثلاً: ^(٧٨) "وإذا لم تلحق الألف قلت: وازيد، إذا لم تضيف، ووازيد، إذا أضفت، وإن شئت قلت وازيدي، والإلحاق وغير الإلحاق عربي فيما زعم الخليل

(٦٨) انظر الكتاب: ج ٥١/١، ج ١٥٣/٢، ج ٣٠٤/٣، ٥٦٥.

(٦٩) انظر الكتاب ج ٧٢/٢.

(٧٠) انظر الكتاب: ج ٢٧٨/١.

(٧١) انظر الكتاب: ج ١٣٥/٣.

(٧٢) انظر الكتاب: ج ٣٧٨/١، ج ١١٣/٢، ١٨٥، ٣٩٩، ٣١٩، ج ١٠١/٣، ٢٤٢، ٢٩٣،

٣٠٣، ٣٤٧، ٣٦١، ٤٥٧، ٥٦٦.

(٧٣) انظر الكتاب: ج ٢٤٢/٣.

(٧٤) كتاب سيبويه وشروحه ص ٣١.

(٧٥) الكتاب: ج ٤٢٨/١.

(٧٦) الكتاب: ج ١٥٩/٢.

(٧٧) الكتاب: ج ٣٣٨/٢.

(٧٨) الكتاب: ج ٢٢١/٢.

رحمه الله ويونس". وفي باب النذبة^(٧٩) "وذلك قولك: وارجلاه، ويا رجلاه! وزعم الخليل، رحمه الله، ويونس أنه قبيح وأنه لا يقال". ويقول: ^(٨٠) "زعم الخليل - رحمه الله- ويونس جميعاً أنه يجوز: ما أتاني غيرُ زيد وعمر". وفي إعراب الضمير بعد لولا: ^(٨١) "وهذا قول الخليل رحمه الله ويونس". ولعلَّ ما سلكه سيبويه إزاء الخليل ويونس يذكرني بالأعرابي الذي صلَّى خلف النبي صلى الله عليه وسلم، ثم دعا الله قائلاً: ^(٨٢) "اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً"، فدهش النبي وقال له: "لقد ضيقتَ واسعاً".

ومفاتيح رواية سيبويه عن يونس كثيرة منها: ^(٨٣) "حدَّثنا يونس ..."، ^(٨٤) "أخبرنا يونس ..."، ^(٨٥) "أُتشدنا يونس ..."، وفي أغلب الروايات: ^(٨٦) "زعم يونس ..."، ^(٨٧) "وأما يونس فيقول ..."، ^(٨٨) "وهذا قول يونس ..."^(٨٩) ونقل سيبويه عنه أبواباً كاملة في النحو والصرف، إما عنه^(٩٠) وحده، وإما عنه وعن الخليل^(٩١) جميعاً.

(٧٩) الكتاب: ج ٢/٢٢٧.

(٨٠) الكتاب: ج ٢/٣٤٤.

(٨١) الكتاب: ج ٢/٣٧٣.

(٨٢) بطل الأبطال ص ٦١.

(٨٣) انظر: الكتاب: ج ١/١٥٥، ٤٠٩ - ج ٢/٣٥٥، ٣٦١، ٤١٠ - ج ٣/٣٣٧.

(٨٤) انظر: الكتاب: ج ٢/٢٧٦ - ج ٣/٢٦٧.

(٨٥) انظر: الكتاب: ج ٣/٤٥٥.

(٨٦) انظر: الكتاب: ج ١/١٢٠، ٢٧٨.

(٨٧) انظر: الكتاب: ج ١/٣٨٧، ٤٢٨، ٤٣٥، ج ٢/٧٧، ٤١١، ١٩٩، ج ٣/١٣٥، ٢٤٩،

٤٢٥.

(٨٨) انظر: الكتاب: ج ٢/٧٦.

(٨٩) انظر: الكتاب: ج ١/٤٣٣.

(٩٠) انظر: الكتاب: ج ٣/٤١٧ - ٤١٨. ج ٣/٤٢٣ - ٤٢٤.

(٩١) انظر: الكتاب: ج ٢/٢١٣ - ٢١٤، ٣٣٨.

ويعتز سيبويه في كتابه برأي يونس ويعتدّ به، ويثق، فهو يعود إليه ويسأله كلما أشكل عليه، يقول في باب ما ينتصب على التعظيم أو المدح: "(٩٢) وسمعنا بعض العرب يقول: (الحمد لله رب العالمين)، فسألت عنها يونس فزعم أنها عربية"، ويقول في باب اختلاف العرب في الاسم المعروف الغالب إذا استفهمت عنه بمن: "(٩٣) وسألت يونس عن: رأيت زيدَ بنَ عمرو، فقال: أقول: من زيدَ بنَ عمرو، لأنه بمنزلة اسم واحد؛ وهكذا ينبغي إذا كنت تقول: يا زيدَ بنَ عمرو، وهذا زيدُ بنُ عمرو، فتسقط التتوين". ومواطن (٩٤) أسئلته له كثيرة.

وكان يتخذ من رواية يونس تصديقاً لرواية نحوي آخر؛ فهو يقول: "(٩٥) وزعم أبو الخطاب أن العرب الموثوق بهم يقولون: أنا هذا، وهذا أنا ... وحدثنا يونس أيضاً تصديقاً لقول أبي الخطاب: إن العرب تقول: هذا أنت تقول كذا وكذا، لم يرد بقوله: هذا أنت، أن يُعرّفه نفسه، كأنه يريد أن يعلمه أنه ليس غيره، هذا محال، وأراد أن ينبهه، كأنه قال: الحاضر عندنا أنت، والحاضر القائل كذا وكذا أنت.

وأحياناً قد لا يطمئن إلى قول نحوي فيلجأ إليه، فعنده الخبر اليقين. يقول: "(٩٦) وزعم عيسى بن عمر أن ناساً من العرب يقولون: إذن أفعلُ ذلك، في الجواب؛ فأخبرت يونس بذلك، فقال: لا تُبعدن ذا، ولم يكن ليروى إلا ما سمع، جعلوها بمنزلة هل وبل".

ولم تتوقف الثقة بيونس إلى هذا الحد، وإنما بلغت اتساعاً بحيث اتخذ سيبويه من قوله دعامة يؤيد بها مذهبه؛ فقد رأى سيبويه رأياً ثم بدا وكأنه يشعر بعدم

(٩٢) الكتاب: ج ٢/٦٣.

(٩٣) الكتاب: ج ٢/٤١٤.

(٩٤) انظر: الكتاب: ج ٢/٢٣٦، ج ٣/٣٥٢، ٣٥٥، ٤٤٢.

(٩٥) الكتاب ٢/٣٥٤ - ٣٥٥.

(٩٦) الكتاب ج ٣/١٦.

الطمأنينة إلى ما رآه، فدعمه بقول ليونس لتهدأ به نفسه، قال: ^(٩٧) "وأما يا تميمُ أجمعون فأنت فيه بالخيار، إن شئت قلت: أجمعون. وإن شئت قلت: أجمعين؛ ولا ينتصب على أعني، من قيل أنه محال أن تقول أعني أجمعين؛ وبذلك على أن أجمعين ينتصب لأنه وصف لمنسوب قول يونس: المعنى في الرفع والنصف واحد".

غير أن الطريقة التي كان سيبويه يذكر بها يونس وروايته تُوهم وتُضلل؛ إذ يصعب على الباحث بسببها أن يميز بين ما هو رواية محضة ليونس، وما هو رواية ورأي في آن واحد. ولعل هذه الطريقة هي التي أوقعت النحاة المتأخرين، وجعلتهم ينظرون إلى رواية يونس على أنها رواية محضة، دون أن يلتفتوا أو ينتبهوا إلى أنها في أحيان كثيرة رواية ورأي معاً. وقد وقع السيرافي، أشهر شراح الكتاب، في حيرة حين اعترضه قول سيبويه عن يونس في باب الندبة: ^(٩٨) "وأما يونس فيلحق الصفة الألف فيقول: وازيد الظريفاه، واجمجتِي الشاميتيناها" فقال ^(٩٩): ندبة الصفة قول يونس والكوفيين، والذي حكاه سيبويه عن يونس لست أدري إلحاق علامة الندبة له من قياس يونس، أو مما حكاه عن العرب فنحتج له به".

وهذا ^(١٠٠) باب ما لا يعمل فيه ما قبله من الفعل الذي يتعدى إلى المفعول ولا غيره، يتحدث فيه سيبويه عن المواطن التي لا يعمل فيها المتعدي فيما بعده، ويطنب في التفصيل والتوضيح، مبيناً أن الاسم بعد هذا الفعل قد يأتي مرفوعاً وقد يأتي منصوباً؛ كل ذلك في أسلوب يُوهم المرء أن كل ما يقوله من رفع ومن نصب هو له، ولكنه يفاجئنا في نهاية الصفحة الرابعة بقوله: "والرفع قول يونس"، فلا

(٩٧) الكتاب ٢/١٨٤.

(٩٨) الكتاب: ٢/٢٢٦.

(٩٩) حاشية الكتاب: ٢/٢٢٦.

(١٠٠) الكتاب ١/٢٣٥.

يدرى أهو الرفع الذي تحدث عنه في الفقرة التي ذكر يونس فيها، أم الرفع في كل ما ورد في هذا الباب! ومن يتمعن تماماً في السياق العام للباب يجد أن الرفع كله ليونس، إذ يبدو أن كل ما مثل سيبيويه به يقوم على موقف يونس، وإن كنت لا أجزم بأن كل ما جاء به سيبيويه من أمثلة هو ليونس، ولكنه يكفي أن يفهم أن مذهب الرفع الذي قام عليه معظم الباب هو مذهب يونس.

وحسب فهمي للأمر وتصوري إياه، فإنني لا أستطيع أن أفهم أن موقف يونس مما يرويه عن العرب كموقف أبي زيد مما يرويه، أو موقف الأصمعي مثلاً مما يرويه؛ ذلك أن أبا زيد والأصمعي راويان للغة فحسب، بينما يونس بن حبيب راوية ونحوي، ولكنه نحوي قبل أن يكون راوية. فإذا ما روى فإن ما يرويه لا يكون في معظمه إلا لبيان موقف نحوي، أو استنباط موقف نحوي، أو التذليل على موقف نحوي اتخذه، وذلك على الرغم من أن سَوَّق سيبيويه لرواية يونس يوهم أنه يروي رواية دون أن يتخذ من هذه الرواية موقفاً نحوياً. فيونس قعد معظم حياته للدرس النحوي، ولترسيخ القواعد النحوية في ضوء ما بين يديه من مادة لغوية؛ فإذا قال سيبيويه: "(١٠١) وحدثنا يونس أن بعض العرب يقول: يا أمّ لا تفعلني؛ جعلوا هذه الهاء بمنزلة هاء طلحة إذا قالوا يا طلح أقبل .."، فكيف يكون هذا القول رواية ليونس ولا يكون رأياً وموقفاً؟ إنه يقيس في هذا القول ويعلل. وكيف يكون قول سيبيويه عن يونس في باب النداء: "(١٠٢) ويقوي ذلك كله أن يونس زعم أنه سمع من العرب من يقول: يا فاسق الخبيث، يدل على أن كل منادي مضموم هو معرفة". كيف يكون هذا القول رواية ليونس ولا يكون رأياً يُلْمَح من سياق الكلام؟ بل كيف يكون رواية ما ينسب إلى يونس في قول سيبيويه: "(١٠٣) وحدثنا بذلك

(١٠١) الكتاب: ٢/٢١٣.

(١٠٢) الكتاب ٢/١٩٩.

(١٠٣) الكتاب ٢/٣١٩.

يونس وعيسى جميعاً أن بعض العرب الموثوق بعربيته يقول: ما مررت بأحد إلا زيداً، وقوله: " (١٠٤) وحدثنا يونس أن بعض العرب الموثوق بهم يقولون: مالي إلا أبوك أحد". كيف يكون ذلك رواية ليونس مع أنه يروي هنا عن العرب الموثوق بهم؛ فكيف يكون هذا القول رواية ولا يكون رأياً، ما دام صاحب القول نحوياً أولاً وقبل كل شيء، وما دام يروي عن عرب موثوق بهم؛ والنحوي يتصيد ما يرويه عن الموثوق بهم تصيداً ليبنى عليه رأياً وموقفاً نحوياً.

ومع أن يونس ذو شخصية واضحة بارزة تمثل في معظم صفحات الكتاب وتتلائم مع الخليل في مواضع عدة، إما روايةً - وهي في معظمها رأي كما أسلفت - وإما رأياً صريحاً صرح به سيبويه، إلا أن هذه الشخصية تكاد لا تبين بوضوح، أو أن هذه الشخصية لا تأخذ المكانة التي تستحقها في معظم كتب النحاة المتأخرين، بينما تظهر فيها شخصية الأخفش والمازني والجري وابن السراج والزجاج بشكل أوضح وأبرز، مع أن فرقاً كبيراً بين هذا وهؤلاء. لا بد أن يعتربك التساؤل والاستغراب حين تجد أن يونس لا يذكر في شرح ابن عقيل، أو شرح المفصل، أو حاشية الصبان، أو شرح الأشموني، أو مغني اللبيب، أو شرح التصريح، أكثر من ثلاثين مرة في أكثرها إنصافاً له، مع أنه ذكر أكثر من مائتي مرة - كما أسلفت - في الكتاب. ولقد أوهمت هذه الكتب الدكتور شوقي ضيف أن يونس لم يكن له دور في علم النحو، فاستخلص نتيجة، بعد أن مرّ عليه مروراً خاطفاً، فقال: " (١٠٥) وعلى هذا النحو وقع يونس بعيداً عن تطور نظرية النحو على شاكلة ما انتهت إليه في الكتاب عند سيبويه والنحاة الذين يوضعون بحق في تطورها، وهم: ابن أبي إسحق، وعيسى بن عمر، ثم الخليل بن أحمد، وسيبويه". فهو يرى أن ابن أبي إسحق وعيسى بن عمر أهم من يونس وأكثر تأثيراً في مجال النحو؛ ولو عاد الدكتور شوقي ضيف إلى كتاب سيبويه، الذي يعدّه الثمرة

(١٠٤) الكتاب ٢/٢٣٧.

(١٠٥) المدارس النحوية ص ٢٩.

الناضجة لتطور نظرية النحو، وتتبع مساهمة يونس فيها، لكان له موقف آخر مختلف، ولكنه اكتفى بالعودة إلى تلك الكتب المتأخرة التي طمست شخصية يونس وأثره في النحو في حد بعيد.

ولعلّ عدم وضوح شخصية يونس وإنصافها وإعطائها ما تستحقه من حق ضائع يعود إلى سببين، الأول: ما أسلفته، وهو الطريقة التي كان سيبويه يتبعها في ذكر يونس وروايته، إذ كانت تؤدي إلى اللبس والتضليل؛ بحيث يصعب على الباحث أن يميز بين ما هو رواية محضة، وما هو رواية ورأي؛ فترك المتأخرون البحث في هذا الأمر ولجأوا إلى الحل السهل، وهو أن ينظروا إلى كل ما رواه يونس على أنه رواية محضة، وأن ينظروا إلى الرأي الذي بني على ما رواه يونس على أنه رأي لسيبويه.

والسبب الثاني: - وهو أشد وقعا - أن النحاة المتأخرين ورّعوا الكثير من آرائه التي صرح بها سيبويه على أولئك النحاة الذين وافقوه فيها، فنسبوا بعضها إلى سيبويه وبعضها إلى البصريين تعميماً، وبعضها إلى الكوفيين.

فما نسب إلى سيبويه وهو ليونس والخليل حكم الاسم المضاف في المنادى حينما يكرر. قال سيبويه: "(١٠٦) هذا باب يكرر فيه الاسم في حال الإضافة ويكون الأول بمنزلة الآخر، وذلك قولك: يا زيدَ زيدَ عمرو، ويا زيدَ زيدَ أخينا، ويا زيدَ زيدنا. زعم الخليل، رحمه الله، ويونس أن هذا كله سواء، وهي لغة للعرب جيدة". وهذا الرأي واضح أنه ليونس والخليل، وليس لسيبويه فيه إلاّ التوضيح؛ وقد نسب هذا الرأي إلى سيبويه كل من ابن عقيل^(١٠٧)، والأشموني^(١٠٨)، والصبان^(١٠٩).

(١٠٦) الكتاب ٢/٢٠٥.

(١٠٧) انظر: شرح ابن عقيل ٢/٢١٣.

(١٠٨) انظر: شرح الأشموني ٢/٤٥٤.

(١٠٩) انظر: حاشية الصبان ٣/١٥٤.

ومما نسب إليه أيضاً رأي يونس والخليل في الضمير بعد لولا. قال سيبويه:
" (١١٠) هذا باب ما يكون مضمراً فيه الاسم متحولاً عن حاله إذا أظهر بعده الاسم،
وذلك لولاك، ولولاي، إذا أضمرت الاسم فيه جُزَّ، وإذا أظهرت رُفِعَ، ولو جاء
علامة الإضمار على القياس لقلت: لولا أنت، كما قال سبحانه: (١١١) (لولا أنتم
لكنا مؤمنين)، ولكنهم جعلوه مضمراً مجروراً؛ والدليل على ذلك أن الياء والكاف لا
تكونان علامة مضمرة مرفوعة. قال الشاعر يزيد بن الحكم:

وكم موطن لولاي طحت كما هوى بأجرامه من قلة النيق منهوى

وهذا قول الخليل رحمه الله ويونس". والرأي في هذا الموضع صريح الصراحة
كلها أنه ليونس والخليل، وقد نسبه إلى سيبويه كل من المبرد^(١١٢)، وابن
عقيل^(١١٣)، وابن الشجري^(١١٤)، والرضي^(١١٥). ونسبه ابن هشام^(١١٦) إلى سيبويه
والجمهور.

ومما نسب إلى البصريين رأي يونس والخليل في ندبة النكرة، قال سيبويه:
" (١١٧) هذا باب ما يجوز أن يندب، وذلك قولك: وارجلاه، ويا رجلاه. وزعم الخليل
رحمه الله ويونس أنه قبيح وأنه لا يقال". وقد نسب ابن الأنباري^(١١٨) هذا الرأي

(١١٠) الكتاب ٣٧٣/٢ - ٣٧٤.

(١١١) سبأ - آية ٣١.

(١١٢) انظر: الكامل في الأدب ١/١٠٩٧.

(١١٣) انظر: شرح ابن عقيل: ٦/٢.

(١١٤) انظر: أمالي ابن الشجري ١/١٨٠.

(١١٥) انظر: شرح الكافية ٢/٢٠.

(١١٦) انظر: مغني اللبيب ص ٣٦١.

(١١٧) الكتاب ٢/٢٢٧.

(١١٨) انظر: الإنصاف ١/٣٦٢.

إلى البصريين فطمس بذلك ذكر يونس، على الرغم من أنه واحد من البصريين كالخليل وسيبويه.

ومما نُسب إلى الكوفيين رأي يونس في جواز عود الخافض وعدمه، إذا كان المخفوض ضميراً؛ فقد نسبته إلى الكوفيين كلٌّ من ابن عقيل^(١١٩) وابن الأنباري^(١٢٠)؛ أما الأشموني فنسبه إلى يونس والكوفيين، قال: " (١٢١)

وعود خافض لدى عطف على ضمير خفض لازماً قد جُعلا

في غير الضرورة، وعليه جمهور البصريين .. قال الناظم: (وليس) عود الخافض (عندي لازماً) وفاقاً ليونس والأخفش والكوفيين "...".

ومما نسب إليهم أيضاً رأي يونس في الفصل بين المضاف والمضاف إليه، فقد نسبته إليهم كل من ابن الأنباري^(١٢٢) والأزهري^(١٢٣)، بينما نسبته الرضي إليه، قال: " (١٢٤) وأنكر أكثر النحاة الفصل بالمفعول وغيره في السعة، ولا شك أن الفصل بينهما في الضرورة بالظرف ثابت مع قلته وقبحه؛ والفصل بغير الظرف في الشعر أقبح منه بالظرف، وكذا الفصل بالظرف في غير الشعر أقبح منه في الشعر؛ وهو عند يونس قياس".

ويكاد يونس لا يُذكر إلا بذكر آرائه التي خالفه سيبويه فيها؛ من ذلك خلافهما في حكم جواب الشرط المضارع إذا دخلت همزة الاستفهام على الشرط في بدايته.

(١١٩) انظر: شرح ابن عقيل ١٨٧/٢.

(١٢٠) انظر: الإنصاف ٤٦٣/٢.

(١٢١) شرح الأشموني ٤٢٩/٢.

(١٢٢) انظر: الإنصاف ٤٢٧/٢.

(١٢٣) انظر: شرح التصريح ٥٧/٢.

(١٢٤) شرح الكافية ٢٩٣/١.

قال الزجاج: " (١٢٥) هذا باب ما جاء في التنزيل من إدخال همزة الاستفهام على الشرط والجزء؛ وهذه أيضاً مسألة فيها اختلاف بين سيبويه ويونس، وصورتها إن تأتني أنك، بجزم الجواب عند سيبويه، ويونس يقول: إن تأتني آتيك، بالرفع؛ ويقول هو في نية التقديم، ويقدره: آتيك إن تأتني".

ومن ذلك مخالفة سيبويه يونس في أصل لبيك^(١٢٦)، وفي تصغير هند لو سُمِّي بها مذكر^(١٢٧)، وفي: من زيدا وأباه، في النصب على الحكاية^(١٢٨)، والنسبة إلى نحو ملهى^(١٢٩)، وإبدال نون المثنى همزة نحو أضرباء الغلام^(١٣٠)، والنسبة إلى مائة^(١٣١)، وردّ المحذوف في التحقير^(١٣٢).

وكتاب سيبويه، حسب فهمي إياه، يتنازعه نحاة ثلاثة، وهم: الخليل ويونس وسيبويه، مرتبين - في رأيي - حسب مساهمتهم في هذا الكتاب؛ ولكن سيبويه بدت شخصيته النحوية وكأنها تفوق شخصية يونس، بل كادت تبدو متفوقة على شخصية الخليل، وقد فاقتها فعلاً في كتب النحاة المتأخرين. ولعل مردّ ذلك إلى تأليف سيبويه الكتاب بعد أن لملم شتات القواعد النحوية وبوّبها ودلّل عليها. ولو قُدِّر ليونس - وأعتدّر لاستعمال لو - أن يؤلف الكتاب، وأن يتنازعه الخليل ويونس وسيبويه، لتفوّقت شخصيته على شخصية سيبويه تفوقاً واضحاً في الكتاب وغيره، ولكانت وضعت بجدارة في المكانة التي تستحقها. من غير

(١٢٥) إعراب القرآن ٧٨٢/٣.

(١٢٦) انظر: خزنة الأدب ٩٣/٢، شرح التصريح ٣٨/٢. والكتاب ٣٥١/١.

(١٢٧) انظر: الخصائص ١٥٧/١.

(١٢٨) انظر: الكتاب ٤١٣/٢، وشرح الأشموني ٦٤٣/٣.

(١٢٩) انظر: شرح الأشموني ٧٢٧/٣.

(١٣٠) انظر: حاشية الصبان ٢٢٥/٣.

(١٣١) انظر: الخصائص ١٠٦/٢.

(١٣٢) انظر: المصدر نفسه ٧١/٣ - ٧٣.

أن أكون في هذا القول متعصباً ليونس أو معطيه مكانة أكثر من التي له،
كـبعض الباحثين الذين يقفون في أحيان كثيرة موقف المدافع، أو المتعصب
للشخصية التي يبحثون فيها، وكأن الأمر يمسهم أو يتعلّق بهم. ومنطقي في
موقفي هذا هو العطاء العملي الثرّ الذي بين يديّ ليونس من خلال الكتاب.

ولم يكن ليونس أثر في سيبويه وكتابه بصفة خاصة، والمدرسة البصرية
بصفة عامة فحسب، وإنما كان أثر كبير أيضاً في نشأة المدرسة الكوفية التي
اتخذت من اتجاهه مساراً لها وهادياً.

فقد ساد المدرسة البصرية زمن يونس اتجاهان في النحو:

الاتجاه الأول: اتجاه متشدد في القياس والسماع عن العرب، ويمثله ابن أبي
إسحق، وتلميذه عيسى بن عمر؛ فكان الأول: "أشدّ تجريداً للقياس" وكان
يطعن على العرب، ولا يتحرّج من أن يقول للشاعر العربي المشهور بالفصاحة:
لحنت؛ فقد لحن^(١٣٤) الفرزدق في قوله: "مولى مواليا" في بيته:

فلو كان عبدالله مولى هجوته ولكن عبدالله مولى مواليا

وقال له: كان يجب أن تقول: مول موال.

وتبعه الثاني الذي لا يتحرّج من الطعن^(١٣٥) على العرب أيضاً، فكان
يقول^(١٣٦): أساء النابغة في قوله:

فبتُّ كأني ساورثني ضئيلة من الرُقش في أنيابها السُمُّ ناعُ

(١٣٣) طبقات فحول الشعراء، ص ٣٠ (دار المعارف ١٩٥٢م).

(١٣٤) نزهة الألباء ص ٢٧.

(١٣٥) طبقات النحويين واللغويين ص ٣٢.

(١٣٦) طبقات فحول الشعراء، ص ١٦، (دار المعارف ١٩٥٢م).

والوجه الصواب عنده: السم ناقعا.

أما الاتجاه الثاني فهو اتجاه متساهل في القياس، معظمّ لما يرد عن العرب؛ ويمثله أبو عمرو بن العلاء، وتلميذه يونس بن حبيب. وكان الأول " (١٣٧) أوسع علماً بكلام العرب ولغاتها وغريبها"، وكان (١٣٨) "أشدّ تسليماً للعرب"، وكان يجوّز الأوجه المختلفة التي ترد عنهم. جاءه عيسى بن عمر (١٣٩) "فقال له: يا أبا عمر: ما شيء بلغني أنك تجيزه؟ قال: وما هو؟ قال: بلغني أنك تجيز "ليس الطيب إلاّ المسك"، فقال أبو عمر: نمت يا أبا عمرو وأولج الناس، ليس في الأرض حجازي إلاّ وهو ينصب، وليس في الأرض تميمي إلاّ وهو يرفع".

وكان أبو عمرو ينشد قول ذي الرمة (١٤٠):

وظاهرٌ لها من يابس السّختِ

ف قيل له: أنشدتنا بئس، فقال: يابس بئس واحد، هذا شعر ليست عليه مضايقة.

أما يونس فسار مساره إذ كان يجلّه ويحترم رأيه ويقول: (١٤١) "لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كله في شيء واحد، كان ينبغي لقول أبي عمرو بن العلاء في العربية أن يؤخذ كله، ولكن ليس أحد إلاّ وأنت آخذ من قوله وتارك". فاقترضى

(١٣٧) طبقات فحول الشعراء، ص ١٤ (دار المعارف ١٩٥٢م).

(١٣٨) نزهة الألباء، ص ٢٧.

(١٣٩) طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٨، وانظر: الأشباه والنظائر ج ٣/٧٢.

(١٤٠) المحتسب ج ١/٢٩٧.

(١٤١) الشعر والشعراء (المقدمة). والبيتان في ديوان الفرزدق ج ١/٢١٣.

أثره في عدم الطعن على العرب؛ فهذا ابن أبي إسحق^(١٤٢) يسمع قول الفرزدق في مدحه يزيد بن عبد الملك:

مستقبلين شمال الشام تضرينا بحاصب كنديف القطن منثور
على عمائنا يلقى وأرجانا على زواحف تزجي مخها رير

فيقول له: ^(١٤٣) "أسأت إنما هي "رير"؛ وكذلك قياس النحو في هذا الموضع".
وقيل إنه قال له ^(١٤٤) "أسأت، موضعها رفع، وإن رفعت أقوىت". أما يونس فلم
يكتف بتجويد قول الفرزدق، وإنما ذهب إلى استجادته فقال: ^(١٤٥) "وهذا جيد". أو
استحسنه فقال: ^(١٤٦) "والذي قال حسن جائز".

ويسمع أبو عمرو ويونس قول الفرزدق:

وعضّ زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا محستا أو مجرف

فيقفان حائرين أمام الوجه الذي رفع الفرزدق عن أساسه "مجرف" من غير أن
يفكرا بتخطئته أو الطعن عليه، ويحاولان أن يجدا تخريجاً فلم يعثرا، فيقول أبو

(١٤٢) الشعر والشعراء (المقدمة). والبيتان في ديوان الفرزدق ج ٢١٣/١.
(١٤٣) طبقات فحول الشعراء: ص ١٧ (مطبعة المدني - القاهرة). طبقات النحويين واللغويين
ص ٣٢.

(١٤٤) خزنة الأدب ج ٢٣٨/١.
(١٤٥) المصدر السابق: ٢٣٨/١ وقد أورد هذا الكتاب (٢٣٩/١) أن علي بن حمزة البصري
كان يقول في كتاب التنبهات على أغلاط الرواة: والخفض في "رير" جيد، وتقديره على
زواحف رير مخها تزجي.

(١٤٦) طبقات فحول الشعراء ١٧/١ (مطبعة المدني - القاهرة).

عمرو: (١٤٧) "لا أعرف لها وجهاً، وكان يونس لا يعرف لها وجهاً، قلت ليونس: لعل الفرزدق قالها على النصب ولم يأبه، فقال: لا، كان ينشدها على الرفع وأنشد فيها رؤبة على الرفع".

ولما جاء الكسائي إلى البصرة تتلمذ على أبي عمرو بن العلاء، وتأثر به تأثراً ملحوظاً، ويقال إنه بقي ملازماً له (١٤٨) "نحو سبع عشرة سنة"، وتتلمذ بعد ذلك على يونس بن حبيب تلميذ أبي عمرو، وكان يونس يثني عليه في مجلسه بالبصرة ويشجعه، فقد سئل (١٤٩) بحضرته عن توجيه رفع الخمر في بيت الفرزدق: (١٥٠)

غداة أحلت لابنِ أصرمَ طعنةً حصينِ عبيطاتِ السدائفِ والخمرُ

ف قيل للكسائي: على أي شيء رفعت؟ فقال: أضمرت فعلاً، كأنه: "وحلت لي الخمر"، فقال يونس: ما أحسن والله ما وجهته - وفي رواية أخرى (١٥١) أنه قال: أشهد أن الذين رأسوك رأسوك على حق - غير أنني سمعت الفرزدق ينشده:

غداة أحلت لابنِ أصرمَ ضربةً حصينِ عبيطاتِ السدائفِ والخمرُ

جعل الفاعل مفعولاً، كما قال الحطيئة (١٥٢):

فلما خشيت الهونَ والعيرُ ممسكٌ على رغمه ما أمسك الحبلَ حافرُه

(١٤٧) المصدر نفسه ج ٢١/١. وانظر: الموشح ص ٩٢ والبيت: ديوان الفرزدق ج ٢٦/٢.

(١٤٨) ١ لاقتراح، ص ٨٥.

(١٤٩) مجالس العلماء: مجلس ١٠.

(١٥٠) ديوان الفرزدق ج ١/٢٥٤.

(١٥١) تاريخ بغداد ج ١١/٤١٠.

(١٥٢) ديوان الحطيئة ص ١٨٣ (تحقيق نعمان طه، الطبعة الأولى سنة ١٩٥٨).

والقصيدة على الرفع، جعل الفاعل مفعولاً، فقال الكسائي: هذا على هذا وجه.

وكان يونس يتجنب تخطئة الكسائي، ويردّ قوله ردّاً طليفاً جميلاً؛ فما هو يسأل^(١٥٣) في مجلسه إن أولق: ما مثاله من الفعل؟ فيقول: أفعل، فيقول يونس له: استحبيت لك يا شيخ! والظاهر عندنا من أمر أولق أنه فَوَعَلَ من قولهم: ألق الرجل فهو مألوق. أما ابن أبي عيينة الذي سأله هذا السؤال فيسارع^(١٥٤) بعد الإجابة إلى القول: خطأ والله.

ليس هذا فحسب، وإنما كان يونس يغضب الغضب كله إذا ما أحس أن أحداً في مجلسه حاول أن يستثيره أو يعمد إلى تخطئته، ويقول:^(١٥٥) تؤذون جليسنا، ومؤدب ولد أمير المؤمنين.

وقد توطدت العلاقة بين يونس والكسائي، وتعمقت بعد هذا السلوك الذي كان له أجمل الأثر في نفس الكسائي، ولا سيما بعد المسائل النحوية التي جرت بينهما وأقر له يونس فيها، وكافأه على ذلك بأن صدره موضعه.

ولم يكن الكسائي الكوفي الوحيد الذي درس على يونس، وإنما درس عليه الفراء أيضاً. وكان الكوفيون - كما يبدو من رواية أبي الطيب اللغوي - يفتخرون بأنه أخذ عن يونس، فأكثر؛ قال:^(١٥٦) "وأهل الكوفة يدعون أنه استكثر منه، وأهل البصرة يدفعون ذلك"، وهذه الرواية إن دلّت على شيء فإنما تدلّ على مدى المكانة التي كان يونس يمثلها في ذهن الكوفيين وفكرهم.

(١٥٣) الخصائص ج ٢٩١/٣.

(١٥٤) مجالس العلماء، مجلس ١١٩.

(١٥٥) المصدر نفسه، مجلس ١١٤.

(١٥٦) مراتب النحويين ص ٨٦.

وقد كان عقل الكسائي متنبهاً ويقظاً لكل ما كان يسمعه عن يونس من أجل أن يأخذ به ويفتقي أثره؛ فهذا يونس بن حبيب يسأل^(١٥٧) والكسائي حاضر: لم صارت "حتى" تنصب الأفعال المستقبلية؟ فيقول: هكذا خلقت. ويسأل^(١٥٨) الكسائي فيما بعد في مجلس يونس عن قولهم: لأضرين أيهم يقوم، لم لا يقال: أيهم، فيقول أي، هكذا خلقت.

كل ذلك دفع الكسائي والكوفيين بعده إلى أن يتبعوا الاتجاه النحوي الثاني الذي سار فيه أبو عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب، وهو الاتجاه الذي يعظم لغات العرب ويقبل بتجويزها مهما تباعدت، من غير طعن أو تلحين؛ أما البصريون فواصلوا السير على الاتجاه الأول، اتجاهاً ابن أبي اسحق وعيسى بن عمر، وهو الاتجاه الذي اتسم بالتشدد في القياس وتأويل ما يخالفه، أو تشذيبه، أو تخطئته إذا لم يكن بديل للتخطئة.

وقد اتبع الكوفيون يونس في آراء كثيرة خالف فيها البصريين، منها تجويزه^(١٥٩) أن تلقى علامة الندبة على الصفة، نحو قولك: "وازيد الظريفاه"، بينما ذهب الخليل^(١٦٠) إلى أن هذا خطأ.

وتبعوه في جواز^(١٦١) إدخال نون التوكيد الخفيفة على فعل الاثني وجماعة النسوة، نحو "افعلان" و"افعلانان" بالنون الخفيفة؛ وأيد ابن جني هذا المذهب قائلاً: "وليس ذلك... بالممتع في الحس، وإن كان غيره أسوغ فيه منه من قبل أن

(١٥٧) طبقات النحويين واللغويين ص ١٧٧

(١٥٨) مجالس العلماء، مجلس ١١٤. وانظر: الخصائص ج ٣/٢٩٢. وأوضح المسالك ج ١/١٠٩.

(١٥٩) انظر: الإنصاف، مسألة ٥٢، شرح المفصل ج ٢/١٤، حاشية الصبان ج ٣/١٦٩، والرأي في الأصول ج ١/٤٣٦ منسوب إلى يونس وحده.

(١٦٠) الكتاب ٢٢٦/١.

(١٦١) انظر الإنصاف، مسألة ٩٤، شرح الأشموني ج ٢/٥٠٣. شرح التصريح ج ٢/٢٠٧.

الألف إذا أُشْبِعَ مَدَّهَا صار ذلك كالحركة فيها". أما البصريون فذهبوا ^(١٦٢) إلى أنه لا يجوز إدخالها في هذين الموضعين.

وتبعوه في عدم ^(١٦٣) ضرورة عود الخافض.

وتبعوه في أن "أي" ^(١٦٤) في نحو: لأضرين أيهم أفضل، معرب، ولكنه يقول إنه مرفوع بالابتداء و"أفضل" خبره، والفعل معلق عن العمل. أما هم فيقولون: إنه مفعول به منصوب، بينما يرى سيبويه أنه مبني على الضم.

وتبعوه في أن الذي ^(١٦٥) يقع مصدرًا، كما ورد في قوله تعالى: ^(١٦٦) (وخضتم كالذي خاضوا) أي خاضوا فيه، وقوله ^(١٦٧): (ذلك الذي يبشر الله عباده) أي يبشر الله به عباده.

وتبعوه في أن "وحده" ^(١٦٨) منصوبة على الظرف؛ قال سيبويه ^(١٦٩): وزعم يونس أن وحده بمنزلة عنده".

وبناء على كل ما مضى من أقوال وأدلة وآراء حول أثر يونس في الكسائي والكوفيين فإنني أستطيع القول إن تأثير يونس في هؤلاء كان واضحاً شديداً الوضوح وبارزاً، بل وبناء على كل ما مضى يخيل إلي أنني أستطيع القول إن ابن حبيب النحوي كان مؤسساً بارزاً من مؤسسي المدرسة الكوفية، أو على الأقل كان مساهماً مساهمة فعالة في نشأة هذه المدرسة، فهو الذي فتح لها مجال السير في الاتجاه المذكور الذي كان يتجهه مع أستاذه، من غير أن يتعارض هذا القول مع

(١٦٢) انظر: الإنصاف، مسألة ٩٤.

(١٦٣) انظر: شرح التصريح ج ١٥١/٢، شرح الأشموني ج ٤٢٩/٢.

(١٦٤) انظر: الكتاب ج ٣٩٨/٢-٤٠١. والإنصاف، مسألة ١٠٢، وجمع الهوامع ج ٣١٣/١.

(١٦٥) مغني اللبيب ص ٧٠٩، وانظر نسبة الرأي إلى يونس في: إعراب القرآن ج ٣١٥/١.

(١٦٦) التوبة آية ٦٩.

(١٦٧) الشورى آية ٢٣.

(١٦٨) حاشية الشيخ ياسين في شرح التصريح ج ٣/١.

(١٦٩) الكتاب ج ٣٧٧/١.

بصريته؛ وبالتالي فلا أستطيع أن أعده ممن وضعوا النواة الأولى للمدرسة البغدادية، كما ادعى^(١٧٠) الدكتور أحمد مكي الأنصاري. ولعل قرب يونس من الكوفيين هو الذي دفع الأنصاري إلى ذلك. فالتقاء يونس بالكوفيين وأثره فيهم كان قبل أن تنشأ المدرسة البغدادية وتقف على قدميها؛ ونواة المدرسة البغدادية لا يمكن أن تكون إلا بعد وجود المدرستين البصرية والكوفية، وهي المعروفة بأنها انبثقت^(١٧١) من تمازج المدرستين، وأنها مدرسة تقوم على الانتخاب والتوفيق، والنفاز إلى بعض ما يمكن النفاذ إليه من آراء جديدة.

د. محمود حسني محمود

(١٧٠) أبو زكريا الفراء ص ٣٦٦.

(١٧١) المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي ص ١١٦.

المصادر

ابن الأتباري:

- ١- الإنصاف - تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد. مطبعة السعادة، ط الرابعة ١٩٦١.
- ٢- نزهة الألباء - تحقيق د. إبراهيم السامرائي. الطبعة الثانية. بغداد ١٩٧٠.

ابن جني:

- ٣- الخصائص - تحقيق محمد علي النجار. دار الهدى. الطبعة الثانية. بيروت.
- ٤- المحتسب - تحقيق علي النجدي ناصف. القاهرة ١٣٨٦هـ.

ابن خلكان:

- ٥- وفيات الأعيان - تحقيق د. إحسان عباس. دار صادر - بيروت.

ابن السراج:

- ٦- الأصول في النحو - تحقيق د. عبدالسلام الفتلي. مطبعة الأعظمي، بغداد ١٩٧٣م.

ابن الشجري:

- ٧- أمالي ابن الشجري. حيدر آباد. الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ.

- ابن عقيل:
-٨ شرح ابن عقيل. تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد. مطبعة السعادة، ط الثانية عشرة ١٩٦١م.
- ابن العماد:
-٩ شذارت الذهب - بيروت.
- ابن قتيبة:
-١٠ الشعر والشعراء.
- ابن النديم:
-١١ الفهرست. مطبعة الاستقامة بالقاهرة.
- ابن هشام:
-١٢ أوضح المسالك. تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد. دار إحياء التراث العربي. بيروت. الطبعة الخامسة ١٩٦٦م.
- ١٣ مغني اللبيب. تحقيق د. مازن مبارك. مراجعة الأستاذ سعيد الأفغاني، بيروت. الطبعة الثانية ١٩٧٢.
- ابن يعيش:
-١٤ شرح المفصل. المطبعة المنيرية بمصر.
- أبو الطيب اللغوي:
-١٥ مراتب النحويين - تحقيق أبو الفضل إبراهيم. القاهرة ١٩٧٤.

- أبو الفداء:
-١٦ البداية والنهاية - مطبعة السعادة بمصر.
الأزهري:
-١٧ شرح التصريح على التوضيح. دار إحياء الكتب العربية.
الأشموني:
-١٨ شرح الأشموني - تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد. مطبعة
السعادة بمصر. الطبعة الأولى ١٩٥٥.
الأعشى:
-١٩ ديوان الأعشى - تحقيق د. محمد حسين. المطبعة النموذجية.
الأنصاري: د. أحمد مكي الأنصاري:
-٢٠ أبو زكريا الفراء. القاهرة ١٩٦٤.
بروكلمان:
-٢١ تاريخ الأدب العربي. دار المعارف بمصر. الطبعة الثانية.
البغدادي:
-٢٢ خزنة الأدب. تحقيق عبدالسلام هارون. مطبعة الحلبي.
-٢٣ تاريخ بغداد. مطبعة السعادة ١٩٣١.
الجاحظ:
-٢٤ الحيوان - تحقيق عبدالسلام هارون. مطبعة الحلبي.

- ٢٥- البيان والتبيين - تحقيق فوزي عطوي. بيروت.
- الجمحي:
- ٢٦- طبقات فحول الشعراء - تحقيق محمود محمد شاكر. مطبعة المدني. القاهرة ١٩٧٤، دار المعارف ١٩٥٢م.
- الحديثي. خديجة الحديثي:
- ٢٧- كتاب سيبويه وشروحه. بغداد. الطبعة الأولى ١٩٦٧.
- حسني. د. محمود حسني:
- ٢٨- المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي، رسالة دكتوراه مخطوطة في مكتبة الجامعة الأردنية قسم المخطوطات، وفي مكتبة جامعة القاهرة - كلية الآداب ضمن الرسائل الجامعية.
- الحطيئة:
- ٢٩- ديوان الحطيئة - تحقيق د. نعمان طه. الطبعة الأولى ١٩٥٨.
- الحموي - ياقوت الحموي:
- ٣٠- معجم الأدياء - مطبعة دار المأمون. الطبعة الأخيرة.
- ٣١- معجم البلدان. بيروت ١٩٥٦.
- الداودي. الحافظ شمس الدين:
- ٣٢- طبقات المفسرين - تحقيق علي محمد عمر. مطبعة الاستقلال الكبرى. الطبعة الأولى ١٩٧٢م.

الرضى:

٣٣- شرح الكافية. الشركة الصحافية العثمانية ١٣١٠هـ.

الزبيدي:

٣٤- طبقات النحويين واللغويين. تحقيق أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف بمصر.

الزجاج:

٣٥- إعراب القرآن - تحقيق إبراهيم الأنباري. القاهرة ١٩٦٣م.

الزجاجي:

٣٦- مجالس العلماء - تحقيق عبدالسلام هارون. الكويت ١٩٦٢م.

الزمخشري:

٣٧- المفصل. دار الجيل. الطبعة الثانية.

سيبويه:

٣٨- الكتاب - تحقيق عبدالسلام هارون

ج ١ دار القلم ١٩٦٦

ج ٢ دار الكاتب العربي القاهرة ١٩٦٨م.

ج ٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

ج ٤ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م.

السيرافي:

٣٩- أخبار النحويين البصريين - تحقيق طه الزيني. الطبعة الأولى

١٩٥٥م.

السيوطي:

- ٤٠- الأشباه والنظائر - تحقيق طه سعد. طبعة جديدة ١٩٧٥م.
٤١- الاقتراح في أصول النحو. حيدر آباد. الطبعة الثانية ١٣٥٩هـ.
٤٢- بغية الوعاة. تحقيق أبو الفضل إبراهيم. ط الأولى ١٩٦٥.
٤٣- همع الهوامع - تحقيق عبدالسلام هارون. الكويت ١٩٧٥م.

الصبان:

- ٤٤- حاشية الصبان. دار إحياء الكتب العربية.

ضيف. د. شوقي ضيف:

- ٤٥- المدارس النحوية. دار المعارف بمصر ١٩٦٨م.

عزام. عبدالرحمن عزام:

- ٤٦- بطل الأبطال. مطبعة الحلبي. الطبعة الأولى ١٩٢٨م.

عيد. د. محمد عيد:

- ٤٧- الرواية والاستشهاد باللغة. القاهرة ١٩٧٢م.

الفرزدق:

- ٤٨- ديوان الفرزدق. دار صادر. بيروت ١٩٦٠م.

القفطي:

- ٤٩- إنباه الرواة - تحقيق أبو الفضل إبراهيم. مطبعة دار الكتب. القاهرة
١٩٧٣م.

المبرد:

٥٠- الكامل في الأدب - تحقيق د. زكي مبارك. مطبعة الحلبي، الطبعة الأولى ١٩٣٧م.

المرزباني:

٥١- الموشح. المطبعة السلفية. القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨٥هـ.

ناصر. علي النجدي ناصر:

٥٢- سيبويه إمام النحاة.

ياسين:

٥٣- حاشية الشيخ ياسين (ضمن شرح التصريح للأزهري - دار إحياء الكتب العربية).